فهم القداس الإلهي هو أمر ضروري

سوتيرويس، مطران بيسيديا

نقلته إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن الحدث الأعظم والأكثر بركةً في تاريخ الجنس البشري هو مجيء ربنا يسوع المسيح إلى الأرض وعمله الخلاصي. قد يحسد الكثيرون منّا أولئك الذين عاشوا في ذلك الوقت في الجليل واليهودية، لأنهم تمتعوا بامتياز رؤية ربنا يسوع المسيح-الإله نفسه بأمِّ أعينهم. عاينوا المرضى يشفَون من أمراضٍ غير قابلةٍ للشفاء، وعاينوا أناساً يتم تحريرهم من قوى شيطانية. لو أننا عشنا في تلك الأيام واستطعنا رؤية المسيح بأنفسنا، لكان الأمر رائعاً حقاً.

فلنتأمل بشكلٍ أعمق في هذا السؤال: هل نزل ابن الله من السماء فقط ليفيد الذين كانوا أحياء في فلسطين حينها وتمكنوا من رؤيته؟ هل كان فرح حضوره حكراً على الذين كانوا موجودين خلال ثلاث سنوات خدمته العلنية؟ أتى المسيح ليفدي العالم في كل العصور "من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا" (هذا اعترافنا في دستور الإيمان). كيف يمكن إذاً قصرُ وجوده على ثلاث سنواتٍ في القرن الأول في فلسطين؟ هل من الممكن أن يفضّل الله تلك القلَّة بشكلٍ غير مُنصف؟ إن كلماته المنزهة عن الخطأ تجيب عن هذا السؤال: "أَنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ الْوُجُوهَ" (أعمال ١٠:٣٤). إن الذين يؤمنون بالمسيح، بغض النظر عن المكان والزمان الذي يحيون فيه، يتمتعون بنفس البركات من الله. كما يقول القديس بولس "يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْسًا وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ" (عبرانيين ١٣:٨).

فلنتأمّل بما يلي: هل يمكننا، نحن الذين نعيش اليوم بعد ألفي سنة [من زمن المسيح]، أن نلتقي بالمسيح بنفس الطريقة التي التقاه بها أولئك الذين عاشوا في ذلك الزمن؟ وأن نستمع إليه ونتحدث معه ونتلقى بركاته؟ تجيب الكنيسة رسمياً بالإيجاب بشكلٍ حازم. إن من يؤمنون بالمسيح رباً، ويعتمدون، ويبقون بشكلٍ طبيعي متحدين مع المسيح ومع كنيسته، سيحظون بنفس الفرصة التي حظي بها أولئك الذين عاشوا حينها [في زمن المسيح]. إن هذا مذهلٌ حقاً. كيف يمكن ذلك؟

من المستحيل على منطقنا البشري المحدود استيعاب كيف يمكن لحدثٍ كهذا أن يحصل. إنه أمرٌ يتجاوز المنطق، ويدخل في نطاق السر. عندما يكون أمرٌ ما في حياتنا اليومية غير قابل للتفسير فإننا ندعوه سراً. هناك الكثير من الأمور التي لا يمكن للمنطق البشري تفسيرها، كالأحداث الفائقة

الطبيعة المتعلقة بالأفعال الإلهية. تلك أسرار الله، ولكي نقاربها وننتفع، علينا تجاوز حواسنا الخمس (الرؤية والسمع والذوق والشم واللمس). يمكن لحواسنا أن ترتبط بالأشياء المادية فقط. إن ملامسة أسرار الله يتطلب إيماناً (حاسة أخرى). بيد أن هذا الإيمان ليس حصيلة المخيلة البشرية التي هي افتراضية ومظلمة وغير محددة. إن الإيمان المسيحي مبني على شخص حقيقي، يسوع المسيح، ابن الله، الذي كشف لنا كل ما نحتاج معرفته لكي نصل إلى وجهتنا النهائية. إن تاريخ الكنيسة البالغ ألفي عامٍ يؤكد أن حقائق المسيح تتحقق في حياتنا اليومية. إن ما قاله الرب هو صحيح بالتأكيد: "اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَكَلاَمِي لاَ يَزُولُ" (متى ٣٥:٢٤). وماذا قال لنا المسيح وهو ما يزال على الأرض؟ "هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (متى ٢٠:٢٨). ولكنْ، قد يتساءل المرء: "ولكنَّ المسيح صعد إلى السماء بعد أن تلفّظ بهذه الكلمات، فكيف يمكن أن يكون كلامه صحيحاً؟" نعم، لقد صعد المسيح بالحقيقة، ولكنَّه كإلهٍ، مثل الآب والروح القدس، "حاضر في كل مكانٍ ومالئ الكل"، كما نعلم ونصلي كل يومٍ في صلاة: "أيها الملك السماوي...". والأكثر من ذلك هو أن ربنا يسوع المسيح قد أسس في العشاء الأخير علاقةً خاصة من الشركة مع جميع الناس في كل الأزمنة وفي كل أمة على الأرض. يكفي بالطبع أن يرغب الناس في الإيمان بإنجيل المسيح، وأن يعتمدوا باسم الثالوث الأقدس، وأن يجاهدوا، كأعضاء في كنيسته، للعيش وفقًا لإرادته بقلوب ملتهبةٍ للشركة مع المسيح.

بعد سماع هذا، من السهل القول: "كل ذلك هو لغزٌ بالنسبة لي!". نعم، كل هذا هو نتيجة سرّ. هذا يدعى بلغة الكنيسة: سر الإفخارستيا الإلهية (ويدعى أيضاً المناولة).

إنه سر الإفخارستيا/المناولة الذي تتحقق فيه شركة كل مؤمن مع المسيح. إن هذا السر الأعظم الذي لا يسبر غوره قد أسسه الرب نفسه ليلة الخميس المقدس، مباشرةً قبل إلقاء القبض عليه وصلبه، وذلك ليؤكد شركته المستمرة وغير المنقطعة مع جميع تلاميذه في كل الأجيال.

جميع المسيحيين يعرفون من الأناجيل المقدسة ومن رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (١١:٢٣-٢٨) كيف أسس المسيح هذا السر. يُقام هذا السر الأعظم، كما نعلم جميعنا، أثناء القداس الإلهي.

ولكنْ، هنا يكمن التحدي الأكبر للمؤمن. إن سرٌ ذو معنىً روحي للغاية (يختصر خلال فترة قصيرة إلى حد ما، في ساعة تقريباً)، ويعبّر عنه بلغة رمزية في الغالب وغير مفهومة للجميع، لذلك من الضروري أن يُكشف الغنى الروحي للقداس الإلهي ويُفسّر بشكل مفصل، وذلك لكي يشترك كل مؤمنٍ بكل قلبه وذهنه في سر الإفخارستيا الإلهية التي تقدم في القداس الإلهي.

ولهذا السبب، إن شاء الله، سنخصص عظات الآحاد لهذه السنة الكنسية لتفسير وفهم القداس الإلهي.

Metropolitan of Pisidia Sotirios. Understanding of the Divine Liturgy is necessary. Pemptousia. 5 October 2023. https://pemptousia.com/2023/10/understanding-of-the-divine-liturgy-is-necessary/